الى احضان رفائيل، لكي تحمل وتولد له حفيداً (عوّاد)، ينشأ ويتربّى في الدير. وخلافاً لموسى علي، يطمح فردج لحفيده مستقبلاً آخر وان يكون «بدوي يهود»، فيخطط لتهريبه من الصحراء ومن الحدود المصرية، ليصبح طيّاراً في سلاح الجو الاسرائيلي. وهناك، من ناحية أخرى، الشرطة المصرية السرية (المخابرات) التي تقوم بمطاردة المتنزّهين والرهبان. ورفائيل وعذاباته الجسدية والفكرية.

رفائيل

يحمل رفائيل هموماً كثيرة. فهو مطارد، لأنه كان، مرّة، شيوعياً؛ كما انه زنا مع ابنة فردج، وانجبت له ولداً قام بتربيته في الدير. والصحراء، بالنسبة اليه، وخاصة دير سانتا كاترينا، ملجأ يلوذ به. وهو يراقب التغيرات الطارئة على الصحراء باهتمام شديد: «لأن المصريين عادوا الآن، وهم يديرون المكان. صحراء الله تستبدل اسياداً مؤقتين. الله وكاترينا والبدو يبقون هنا فقط» (ص ١٠٥).

فأحداث الرواية، كما نفهم من الاقتباس اعلاه، تدور ما بعد معاهدة كامب ديفيد. واختلاط الشخصيات، في الرواية (العرب، واليهود، والنصارى الاجانب)، يزيد في ارتفاع نسبة القولبة والتنميط في الرواية. ويبدو لنا وكأن الصحراء اعدّت للقاءات الغريبة، واقامة العلاقات الغرامية، وانجاب الابناء غير الشرعيين. فها هو رفائيل (لضرورات فنّية روائية واكزوتية) يضاجع جميلة ويرزق بابن. والأنكى من ذلك هو ان اباها البدوي هو من دفعها الى القيام بذلك، وكأن البدو، بكل ما يملكونه من عروبة وشهامة، على استعداد للتنازل عن اعراضهم وشرفهم بسهولة. ويقودنا ذلك (دفع جميلة الى احضان رفائيل) الى حقيقة العربي في الرواية. فالعربي ديكور وآلة تزيين واثارة. امّا العادات والتقاليد العربية البدوية الاثيرة، فهي تظهر، في الرواية، امّا مشوّهة، او مبتورة، او مزيّفة، او تظهر بشكل معقول، في احيان، لضرورات فنّية ليس الاّ.

والتنميط يطاول تفكير رفائيل بشكل واضح ايضاً في هذا الهجس: «صعب جداً ان تكون نصرانياً في وسط الصحراء، حين يحيط بك المسلمون من كل جهة، واليهود هم القريبون اليك، الذين صلبوا المسيح الذي جرّب ان ينقذ نفوسهم » (ص ١٢١). أليس هذا تنميطاً واضحاً واثاره رخيصة على حساب كل المشاعر الدينية.

فردج

البـدو، في الرواية، هم مجرد عوامل مساعدة ومراقبة. فردج الماكر يوقع رفائيل في فخّه ويحتفظ بطموحه المستقبلي في دخيلة نفسه (شعوره بالتدني وحبه بالاتصال بعالم اليهود) ويشتغل: «وكانت المؤن تفرغ في باب الدير. ومن هناك، كنت، انا وعوّاد حفيدي، ندخلها؛ ومصطفى الختيار كان يساعدنا» (ص ١٢٥).

وهو لا يخفي حقيقة شعوره تجاه الاسرائيليين؛ فهو بدوي مُباع: «عندما يسألني الاسرائيليون، وعندما لا يسألون، اقول لهم انه كان احسن عندما كانوا هنا؛ فتيات اكثر؛ حرية اكثر؛ عاملونا كما يجب» (ص ١٢٥). ولا ندري مدى نمطية هذه الشخصية ومدى حقيقتها وصدقها؛ لكن القولبة، في احيان، تطغى على كل شيء في اقوال هذه الشخصية: «انا اعتني برفائيل الذي احضرني الى هنا. عوّاد يخدم في الدير، وجميلة في القرية، مع البدوي الذي وافق على ان يصفح عنها مقابل مهر على عدم بتولتها» (ص ١٢٥). ثانية، نرى انفسنا مقادين الى عالم غرائبي شبيه بعوالم غروسمان: جميلة تجد بدوياً يصفح عنها مقابل مهر (نقود)، كحلمي في رواية «ابتسامة الجدي» الذي كان يتزوج نساء حاملات مقابل نقود. هذه الصورة المقولبة والمنمّطة للعرب تثير القرف والاسى، لبؤسها ولافتقارها الى المصداقية. وان دلّت على شيء، فانما تدل على حقيقة صورة العربي التي تدور في اذهان بعض الكتّاب العبريين الذين ينتمون الى صفوف اليسار الصهيوني الليبرالي.

لقد كان قلب فردج مليئاً بالتجوال، ولم يتجوّل بعد. لذا، فانه يريد حفيده عوّاد ان يكون مغايراً: «ان يكون له دم يأتي من مسافات بعيدة. دم تجوال، وليس دم بدوي يعرف الجبال والبساتين فقط» (١٢٦). فالتنميط يطاول كل الشخصيات، حتى في احلامها. وها هو عوّاد يستمر في توصيل فردج وجميلة وعوّاد بأمان: «واعطى [عـوّاد] اسمـه للطفـل واحضر رفائيل الى الدير وعيّنه هناك رئيساً للدير» (ص ١٢٨). بسهولة زائدة، يحل